

اجتهادات فى شهر واحد

قليل جداً من يعرفون أن المجتمع يمكن أن يتغير، وأن يكون هذا التغير عميقاً شاملاً، خلال أيام لا يزيد مجموعها على شهر واحد. فقط من يقرأون التاريخ قراءة فاحصة مُدَقَّقة بعين تحليلية ناقدة يعرفون ذلك، ولا يستغربونه لأنه يحدث عندما تدب الروح فى المجتمع من أسفله إلى أعلاه.

فقد مضى زمن كان ممكناً فيه لفرد أن يبيت روحاً فى المجتمع. ولو أن الفيلسوف الألماني الكبير هيجل عاش بيننا هذه الأيام لما كتب عن زعيم مثل نابليون مثلاً أنه روح أوروبا تركض فوق حصان. ولو عاد هيجل إلى الحياة فى عصرنا لعرف أن الروح التى قصدها إنما توجد فى المجتمعات، وليس فى القادة والحكام الذين يستلهمون منها هذه الروح. وهذا يفسر لماذا يخسر من يراهن على فرد فى هذا العصر، مهما تكن أزمة المجتمع وبؤس حاله.

وفى تاريخنا القريب ما يؤكد أن الرهان على حكام لإنقاذ المجتمع لم يفلح، وفيه أيضاً ما يفيد أن الروح يمكن أن تدب فى المجتمع خلال أيام معدودات، كما حدث فى خريف عام 1918 فى نهاية الحرب العالمية الأولى.

فُرض على المجتمع المصرى أن يكون جزءاً من تلك الحرب بسبب وجود قوات الاحتلال البريطانى على أرضنا. وخرج منها، وقد تفاقمت التناقضات الاجتماعية فيه، وتوسع نطاق التفاوت الطبقي. كانت أسعار القطن قد ارتفعت فى نهاية الحرب من سبعة ريالات للقطن إلى عشرين ريالاً. وكان عشرات الآلاف من الفلاحين والعمال قد عادوا من معسكرات القوات الإنجليزية على فيض الكريمو0 وشاع فى ذلك الوقت الحديث عن أغنياء الحرب وأشقائها.

ولكن هذه الحالة لم تستغرق عدة أسابيع بسبب التغير الجوهري الذى حدث فى المجتمع بين منتصف أكتوبر ومنتصف نوفمبر 1918، حيث بثت فيه فكرة الاستقلال روحاً فى هذا المجتمع الذى بدا وقتها كما لو أنه فى حالة موت، وحركه الاقبال على توقيع التوكيل لتفويض وفد يسعى إلى التحرر من الاحتلال.

وهكذا تحول المجتمع تحولاً جذرياً فى مثل هذا الوقت من عام 1918، وبدأ كما لو أنه مجتمع آخر فى شهر واحد أو أكثر قليلاً.